الهيرومنطيقيا
والوظائف الدينية والاجتماعية

مداسي مريم وفاء[1]

تقديم :

يحاول الانسان دائما البحث عن تفسيرات للعديد من الظواهر التي تحيط به ، ومن خلال طرحه للعديد من المشكلات الفلسفية حول نشأة الكون وغيرها ، نجده هنا يعود لكتاب الله المقروء (القرآن الكريم) ، والكتاب المفتوح (الكون) بجميع خصوصياته وتفاعلاته ، لأن العلاقة بين هذين الكتابين هما علاق تكاملية فالكون يبرهن عن عظمة وجود خالق إضافة إلي دقته في خلقه سبحانه عز وجل ، وهذا ما يتجلى في العديد من الآيات القرآنية التي توضح ذلك ، ظف إلي بعض النصوص الدينية التي جاءت تحرم بعض الصفات الغير أخلاقية فكل هذا موجود في القرآن والسنة النبوية التي من خلالها يجد الانسان نفسه داخل قواعد دينية تسهل عليه عملية الرقي بأخلاقه في جميع الميادين ، الا أننا لا يجب أن ننسي الدور الأساسي الذي يقدمه المؤول في هذه العملية التأويلية في الخطاب الديني الاسلامي الذي يتصف بالقداسة ، والمحافظة على التعاليم الإسلامية التي تنشر تعاليم ديننا السميح من تحريم للخمر وغيرها من الأمور ، فكل هذا موجود داخل الخطاب الديني ، فالمؤول يجد نفسه داخل عملية تأويلية تدفعه إليها الضرورة الدينية وحتي الاجتماعية ، ولذلك يقع على عاتق المؤول مسؤولية كبيرة في توضيح بعض المسائل الغامضة التي تستدعي التفكير والتأمل الكبير ، فهنا نجد العديد من المؤولين من يتمسكون بالمنهج الكلاسيكي في عمليتهم هذه ، ومنهم من يدعون لضرورة المثول للمنهج المعاصر مستندين في دلك على وجود قضايا معاصرة راهنيه تحتاج لأسلوب تأويلي معاصر لتجد الحلول وتخرج من الأزمة المعاصرة سواء أزمة اجتماعية أخلاقية أم أزمة الهوية الدينية ؟ ومن خلال ما تقدم سوف نحاول أن نتطرق

---

[1] باحثة في الفلسفة مخبر تطوير جامعة سعيدة الجزائر

للإشكالية التالية : كيف يمكننا أن نجعل من الهير ومنطيقا أساسا لحل بعض الأزمات المعاصرة باللجوء إلي الخطاب الديني ؟

الحاجة لخطاب ديني

إذن فلا حجة لنا إلا أن نقر بأننا في أزمة قيمية تستدعي الوقوف والتمعن فيما يمكن أن نسعي إليه للخروج منها ، حيث لا يمكننا الخروج منها إلا بالدعوة للإصلاح وتصحيح بعض الأفكار الشائبة التي أدت بالفكر البشري للعديد من الانزلاقات الفكرية ، ويلتمس هذا الإصلاح الجانب الأخلاقي والجانب الفكري بشكل كبير كونهما عاملان أساسيان لارتقاء الأمم ونهوضها ، وأيضا إذا رجعنا لأسباب هذه الأزمة القيمية نجدها نتاج العديد من المساومات التي أصبحنا نعيشها في الفترة الراهنة ، وهذا ما خلق مختصين يبحثون عن ما يجب أن يكون يعني تأسيس أخلاقي جديد يحاولون من خلاله الوقوف على أهم النقاط التي تكون بمثابة نقطة الانطلاق لفكر جديد وأسلوب عملي علمي متصاعد يناهض وينافي ما هو سائد في اليومي ، لكون الواقع يطرح إشكاليات عديدة يمكن أن تصل لحد المعضلة التي لا يمكن الولوج لها بأي طريقة كانت ، وليخفي علينا إسهامات العلماء المسلمين في هذا المجال حيث حاولوا من خلال اجتهاداتهم الدينية في مجال النص والتأويل استنطاق هذا النص وبلورته على شكل خطاب ديني عملي تطبيقي يكون مستلهما من القرآن والسنة النبوية ، لدفه نحو تحرير الفكر من كل الشوائب التي تطغوا عليه ، وبدافع تحقيق غايته الدينية التي جاءت في النص الأصلي القرآن الكريم وحتي انهم كانوا يتعاملون مع هذه النصوص بحذر شديد قال الله تهالي في كتابه العزيز [2]" إلا الراسخون في العلم" .

[2]سورة آل عمران الآية 8

وكان هذا من خلال للجوء للمسائل العقائدية المطروحة في الساحة الفكرية والتي تشغل النقل والعقل وهذا ما طرح مسألة مهمة جدا وهي كيفية ارتباط المعني الباطني بالمعني الظاهري[3]

ماهية التأويل :

يدل مصطلح الهير ومنطيقا hermenutics في أصوله البعيدة على مصطلح مدرس لاهوتي[4] ، ويعود أصلها في العقل اليوناني إلي ثلاث معاني وهي :

- عبر عن فكرة بواسطة الكلام
- عرف شيئا ما وأشار إليه وعرضه
- أول وترجم

وهي التي تعني في أصلها المفسر أو الشارح وهي مرتبطة بهرمسhermes ، وهو رسول الآلهة حسب بعض الروايات ، وفي مجمل قول هوميروس أن هذا الهرمس هو الوحيد الذي استطاع الفصل بين الآلهة والبشر وله القدرة الخارقة على أن ينقل جل معارفه والحقائق التي تجول في خاطر الآلهة في قوالب لغوية متماسكة ومتميزة[5]

فالهيرومنطيقا هي ما تدل في تلك الفترة على التفسير الذي يحاول من خلاله الكشف وسبق المعرفة عن المستور داخل النص ، الذي يعيق الفكر العادي على الوصول لبلوغه ، إلا إذا ارتقي في تفكيره ووسائله ، فالمفسر في عملية النصية (القراءة) يدرك أنه بصدد تشكيل جسر تلاقي بين عالم النص الغامض والعالم الذي نوجد فيه ، فإذا تحققت هذه العملية هنا نقول أن هرمس من حقق غايته مع البشر من خلال إقامته لجسر من التفاهم والتراضي .

---

[3] عبدالقادر فيدوح، نظرية التأويل في فلسفة عربية إسلامية، ص4 .

[4] سعيد توفيق ، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، لبنان ، ط1، 2002 ص123

[5] دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمنيوطيقا،تر:وجيه قانصور،الدارالعربية للعلوم، بيروت، ط2007،1،ص21.

فإذا عدنا بالتفكير الفلسفي قليلا نجد أن التأويل عندهم كان يمارس على شكل تفسير من خلال الأساطير والفلسفة والشعر ، لأن بدايات الفلسفة عندهم كانت تمثل شكل من أشكال التفسير العقلاني والروحي[6](،وهذا ما يوضح لنا الرؤية أن التأويل في أهم حقبة من التفكير الإنساني وهي الفترة اليونانية كان يعول عليه للتغير الاجتماعي لاعتباره يؤدي وظيفة ايجابية داخل تلك الفترة من وصول للمعاني والإيراد به الولوج داخل الوعي الإنساني .

أما في العصور الوسطي ،فقد اقترن استعماله وبشكل كبير مع رجال الكنيسة من بينهم المعروف أوغسطين ، أحد آباء الكنيسة فقد وضع له نظريات تضبطه من الناحية الحرفية والرمزية [7]

الهيرومنطيقا بين التأسيس والتفعيل في الخطابات الدينية

لقد تغيرت الرؤية من الناحية التأسيسية لعملية التأويل بالنظر لمستعمليها فمثلا المتكلمون آمنوا بما جاء في القرآن الكريم ظاهرا وباطنا ،

ولكنهم أضافوا على السلف التأويل والبحث عن الكيف[8]، لغرض إثبات معقولية العقيدة التي ترتكز على الوحي والعقل في نفس الوقت ، لتحقيق خطاب متجانس ومعقول داخل قالب فكري يتميز بالمنطقية الفكرية ، وهذا ما جعلهم يستندون لحرية العقل معتبرين أن هذه الحرية في نتاجها الضمني سوف تحقق نتيجة تجمعها مع الوحي الإلاهي وتنافي التعارض الذي يمكن أن يقع ، ولكن هذا الطرح المدعوم بالحرية في الحقيقة هو ما أوقعهم في الجدل لكونهم لم يجدوا شيئا يتفقون حوله ، إلا وأن تضاربت الرؤي والأفكار حول قضية نصية ما .

---

[6]هشام معافة، التأويلة والفن عندهانس جيورج غادمير، منشوراتالإختلاف، لبنان ،ط1، 2010 ،ص 23

[7]المرجع نفسه، ص22

[8]السيد محمدالشاهد ، الخطاب الفلسفي المعاصر ، (من العام إلي الأعم) ، دار قباء ، القاهرة ، 2000، ص11

فعملية التأويل ترتكز على ثلاث ركائز أساسية بدونها تكون العملية ناقصة وهي المؤلف ،الخطاب والمؤول وإذا أردنا أن نقوم بعملية مقارنة بين هذه المفاهيم الأساسية :

-المؤلف : وهو لا يساوي النص إلا معني عينه

-الخطاب: هو ما يتعلق ببنية التأويل بالمحافظة على الدال والمدلول

المؤول : يقوم بتحويل الدال سيؤدي التأويل غائيته[9]

ومثل ما ينظر إمبرتوإيكوا التأويل بأنه تفاعل مع نص العالم ، أو تفاعل مع عالم النص عبر إنتاج نصوص أخري[10]

يبحث التأويل في كيفية تفسير تلك الظواهر الكبري المتجسدة في الكون والتي تعتبر نصا مجسدا لقضايا علمية كبري ، أما المسؤول عن هذه العملية هو الإنسان بفكره الذي يحاول أن يقوم بعملية تأويلية مبسطة في قواعد لغوية مبنية تحقق غاية فعالة تبقي لفترة طويلة محافظة على ثباتها .

وما نلتمسه في الفكر المعاصر ضمن التأويل هو صراع داخلي قائم في مورثنا الثقافي وذلك يرتكز على سوء الفهم لأنه لا يمكن أن يقوم بعملية التأويل فهم للنص ، سواء كان مقصودا وذلك نظرا لما يخلفه من نتائج وخيمة على الفكر البشري لكونه يزحزح تلك الأرضية التي تعتمد في منهجها الدنياوي على النص الإسلامي فما وجه الحاجة إلي تأويل النص الديني لتفادي التشويش الأخلاقي ؟ وبناء ركب حضاري اجتماعي يعتمد على الخطابات الدينية ؟

الخطاب الديني ودوره التفعيلي

لمحاولة البحث عن الأسس والمبادئ التي يمكننا من خلالها توطيد العلاقة بين الخطاب و التغيير في المجتمع يجب علينا أن نتطرف إلي الفهم كونه ضرورة وحاجة أساسية لهذه العملية البنائية يجب أن نفهم المؤلف تماما كما فهم نفسه بل

[9] حميد حميداني، القراءة وتوليد الدلالة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب ،ط1، 2003 ص80

[10] نقلاعن مخلوف سيد أحمد، اللغة والمعني مقاربات في فلسفة اللغة ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، 2010 ، ص135

وأفضل مما فهم نفسه يعني وجوب الاعتماد في تأويل نصه على جميع معتمداته هو في كتابته لهذا النص وعدم الخروج عنها هذا ما يكسب خطابنا أكثر فاعلية داخل قالبه الخاص به ولذلك ينوه أصحاب التأويل على التمسك بالنص الأصلي وعدم تهميشه في العملية الخطابية نظرا لما يفرضه علينا ذلك ، هذا ما يؤكده أن الفهم في ما هيته هو مشكل تأويلي حيث لا يمكن أولا بجرد المؤول يقوم بعملية التأويل دون الفهم وايضا ، نجد عملية الفهم عن المتلقي حيث من الضروري أن تصل الفكرة للمتلقي من خلال ذلك الخطاب الذي يستند على التأويل كشرط أساسي .

ولذلك تقول كاثرين وايت في تقديمها لكتاب مهرجانات التفسير " إن الفهم الإنساني يبدأ بما يكون مفسرا من قبل وينتهي بالتفسيرات التي تبقي دائما متفتحة على تفسيرات تالية وهذا يرجع على وجه التحديد إلي أن الفهم الإنساني يكون محكوما تاريخيا وهو بذلك يكون ويبقي متناهيا " [11]

فلا يمكننا التعرف على تنامي الفهم الإنساني إلا من خلال تعدد التفسيرات وتمسكها لسياق التاريخي الذي وجد فيه المفسر ومن خلال ذلك نجد أن الهيرومنطيقا تتجلي عن نشدان اليقين أو الكمال في مجال التفسير .

ايتيقا الخطاب الديني في ظل الهيرومنطيقا

وجي علينا الحذر من بعض الخطابات التي تقدم اليوم على الساحة الفكرية ، لكونها لا تحمل أي رسالة توعوية بداخلها ، بل مجرد تمويه لسيادة ضالة تريد أن ترسي في واقعنا الهش الذي تخلي عن جميع مبادئه من أجل قضية غير حقيقة ، وأكثر من ذلك ،

وهذا ما جعلنا نبحث عن إيتيقا لهذه الخطابات من لناحية التوعوية التي كان يجب عليها أن تؤسس لها يعني أن نلتمس في جل الخطابات جانب توعوي حسي يحاول النهوض بهذه الأمة إلي الأفق ، خاصة أن هذه المجتمعات تعيش حالة نفور من الحقيقة الموجودة في النص القرآني الثابت والكامل ولهذا نجد أن

[11] نقلا عن سعيد توفيق ، مرجع سابق ، ص95

تخلفنا ما هو إلا راجع لابتعادنا عن التأويل الذي كان يركز عليه أسلافنا أمثال ابن رشد وابن عربي ، فركون الحضارة واقع ، وتدهورها راجع لانعدام الإبداع فيها بشكل كبير لأن هذا الابداع مقرون بالخطابات الفاعلة في المجتمع التي يجب عليها أن تلعب دور الريادة يعني أن تبحث عن التغيير في الأفق .

لأن غياب التأويل يستدعي غياب الوعي وأيضا غياب التأويل يولد لدينا غياب التعقل الذي لا نجد له اساس إلا من خلال الخطابات التي تستدعي التحاور والتشاور في نفس الوقت ، وما هو ثابت لدينا أنه كلما جنح الخطاب الديني نحو التطرف نتج عنه تدني في الأخلاق ولا يخفي عنا أن الأخلاق هي الروح الحقيقة الي تجمع الأمم فيما بينها وحتي الشعوب لذلك وجب الحفاظ عليها والدفاع عنها في نفس الوقت ، وهذا لتطرف أيضا يؤدي بالأمم أيضا إلي الابتعاد عن الحقيقة الكامنة في الدين التي سعي أسلافنا يحافظون عليها بشتي الوسائل التي كانت ممكنه لديهم ، فهذا الخطاب المتطرف الذي لا يحمل في طياته أساس توعي سوف يبقي كذلك إلا إذا واجه فكر حر مؤمن ، هنا سوف يحد نفسه ذلك المخاطب في قطيعة بين ما يسعي لتقديمه وما يتلقاه الآخر ، ولذلك وجب علينا أن نضفي على المخاطب جانب ايتيقي للمحافظة على الموروث ومواصلة الدرب نحو الأفق الموعود الذي يحمل قيمة لكل ما يقدم وأيضا ليكون بمثابة الحافز للتغير ونشر الوعي الفكري وهذا لن يكون إلا من خلال وعي المخاطب نفسه بما يقدم للعامة ، وهذا ما يدفع الباحثين اليوم أن يعودوا لموروثهم الحضاري وعدم الاستهانة به مع محاولتهم في التركيز على بعض القضايا الراهنة التي تؤرق العقل البشري وتجعل منه يتخبط في العديد من القضايا السياسية والأخلاقية وحتي الدينية ، لتي اكتنفها المساس وحاولت بعض الايادي الخفية عن العامة اللعب بها لتحقيق أغراضها بحسب أهمية كل واحد فيها ، فكل هذا كان دائما يهدم ويهدد هذه الرؤية الواضحة التي كانت ولاتزال تحاول أن تفرض نفسها داخل هذه الهشاشة القيمية .

فالوظيفة الاجتماعية والدينة التي يجب على الخطاب أن يتحلى به هو أن يكون صاحب مبادئ ايتيقية تكون بمثابة الدافع والحافز الذي يحيله إلي ترسيخ ثقافة ربط العلاقات الإ يتيقية بين المؤول والخطاب المراد إيصاله فبدون هذه العلاقة لا يمكن للواقع الحالي ان يتغير للأحسن ، لأن الغاية تكمن في ذاتها وغاية الخطاب تكمن في تحقيق الفعالية المستقبلية ، وهذا ما يجعل من المؤول يبحث في ما يجب أن يكون وليس في ما هو كائن . وما يجب أن يكون لن يتحقق إلا من خلال إعادة النظر في الخطابات الدينية المعاصرة .